هنا ومصداق الرأي يتجلى هنا، ومن لا مصداقية له عليه أن ينتظر طويلاً إلى ان يجد آذانا صاغية. فالآذان والحواس والعقول والجهود كلها منغمسة في البراكسيس. نختبر آراءنا وتتطور آفاقنا وتجاربنا في الممارسة. والذين يتحررون من السجون لهم منزلة خاصة ولكنهم في وقت قياسي يندرجون في الأتون ويعرفون أن «العمل المتكلم» هو مختبر ومعيار صوابية مقترحاتهم، ومعظمهم يندرج ويستجيب لمتطلبات المعمعان ....

والواقع كما هو معروف أكثر تعقيداً من التصورات النظرية، وما أن يكتسب الكادر الحس المرتبط بالواقع فإنه ينتقل من المجرد إلى الملموس، ويتعلم أن أهمية المجرد في الملموس والفعل فيه، ومن هنا جاءت كلمات ماركس «من المجرد العام... إلى الملموس الخاص».

فمثلاً تتجسد المركزية في الانغماس بجماع الشخصية في المهام وإزاحة الحجارة والعقبات من طريقها، والذي يتقدم الصفوف تصغي له الصفوف، ليس لأنه أعلى مرتبة بل لأنه يتقدم الصفوف ومع الوقت يتوج بالمسؤولية الأولى.

والحوار الديمقراطي غرضه الأساس استخلاص القرار الصحيح والبحث في أفضل السبل لتنفيذه، وفي الخلفية البرنامج السنوي الذي تستخلص منه الخطط المناطقية ويترك لأهل الشأن تنفيذ المهام. والعقل الجماعي يتبلور من خلال الحوار الجماعي الذي يثمر عن قرارات يتعيّن تنفيذها بحزم وليس مجرد نقاشات أكاديمية ولاهوتية. وقد جرت العادة منذ بداية الثمانينات، أن يعقد الاجتماع القيادي بناء على مسودة موزعة سلفاً، كأرضية نقاش، هي مستقاة من زبدة العقل الجماعي وخبرة العمل الجماعي والمستجدات، وينعكس فيها آراء أهم الكادرات والتجارب الناجحة وما تعكسه التقارير والتساؤلات والتفاعلات مع أعلى، ودروس الممارسة المجموعية كمعيار للصوابية، ومثل هذا العقل القيادي إنما تراكم سنة بعد سنة وخبرة تضاف لخبرة ومسيرة موقع تغني مسيرة موقع آخر....كل ذلك يخّزن وتقوم مصفاة بغربلته.... فهذا جوهر العقل القيادي وليس ما يدور في اجتماع قيادي فقط في لحظة معينة، بل سياق تراكمي طويل ساهمت فيه هيئات وكادرات ومنظمات قاعدية، معظمهم أصبح اليوم داخل قلاع الأسر وبعضهم في ذمة التاريخ. هذا العقل غير المرئي يكون الحاضر الأقوى في اجتماع الهيئة القيادية. ومقولة ماو مرشدة (من المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية ومنها إلى الممارسة) فالمعرفة المنطقية عملية تراكمية تمخضت عن ووضعتها قائمة طويلة من رفقاء العمل وتجارب العمل. لكل واحد نبضة ولكل تجربة خبرة ولكل موقع خلاصة. زبدتها تتسم بقدر عالٍ من الاتساق، فهي النواة المكثفة للعقل القيادي..... جيفارا غزة وتجربته سطر، خبرة رام الله الحزبية سطر، العمل الديمقراطي- الجماهيري سطر، وتجربة وكادرات السجون سطور، ورموز العمل سطور أخرى.... وهكذا وإن كانت تتكثف كمرآة مقعرة لدى المسؤول بمزاياه ناهيكم عن أنه الحارس الأمين على امتداد التجربة....

وبالتالي لم يكن صعباً استصواب أو تصويب رأي أو وجهة نظر أو احتضان وجهة نظر جديدة. إذ ثمة ميزان تكوّن في معمعان طويل وغزير، هذا الميزان المتواشج والناتج عن الممارسة واكثر الرفاق موهبة، إنما يفتح أذرعه لكل جديد صائب، ولا يوجد مصالح شخصية أو امتيازات أو تراتب بيروقراطي أو مماحكات أو نزعات ذاتية تعطله.